# الأوذيسة

لهوميروس

## بقلم الأستاذ دريني خشبة

( تابع )

ثم غابت عروس البحر فى طيات الثبج ، وتركتنى فى حيرة مما ذكرت ، ثم إنى عدت إلى قمرتى فى السفينة ، وعاد كل إلى قمرته ، وبعد أن تعشينا ، وكان الليل قد أرخى سدوله ، نمنا نوماً لا آمناً ولا قريراً . . . وبزغت أورورا تموه المشرق بأصباغ الورد ، فنهضت أصلى للآلهة فوق السَّيفِ الممتد ، وأبتهل إلى السماء أن توفقنا لما فيه خيرنا ثم انثنيت فتخيرت من رجالى ثلاثة هم أصلحهم لهذا الأمر ، وهم موضع ثقتى وموعقد رجائى . وبرزت من الماء عروس الماء ، وأحضرت لنا أربعة جلود من جلود عجول البحر لنلبسها ، ونستخفى بها ، ولتتم الخدعة على أبيها . وأعدت لنا مهاداً فى رمل الشاطىء . ثم دلفنا نحوها ، ونام كل فى مهده ، وألقت فوقنا ما معها من الجلود المنتنة التى أرْوَحت حتى كدنا نختنق برائحتها ، لولا أن نثرت العروس فوقنا طيباً عبقاً ، لأخياشيمنا وأنقذنا من صلول[1] تلك الجلود .

وتلبثنا نرقب البحر حتى برزت عجول البحر فنامت فى الجون ، ثم كانت الظهيرة فبرز بروتيوس وطفق يعد قطعانه ، مبتدئاً ، لغفلته ، بنا ، وكأن أثارة من الشك لم تخامره فى حالنا ، فانطرح ونام . واتهزنا الفرصة ، فانطلقنا نعدو إليه ، وقبضنا عليه ، وشددنا وثاقه بحيث لايستطيع إفلاتاً ... يا عجباً ! لقد انتفض انتفاضة هائلة ، فاذا هو أسد غضنفر ذو لبدة ، ثم انتفض فاذا هو أفعوان أرقم يتحوى ويتحوى ، ثم انتفض فصار نمراً رائعاً ذا أنياب ، ثم صار خنزيراً بريا ، فسيلا رابياً ذا عباب ، فأيكة باسقة ذات غصون وأفنان ! ! ولما لم يجد بداً من أن يبدو لنا على حقيقته ، انتفض فكان على صورته الأولى ، ثم قال : « عَمْرَك الله يا ابن أتريوس أى إلَه جبار حبسك فى مياهنا وسلطك علىّ ، تمسك بى وتشد وثاقى ؟ ماذا تريد ؟ » فقلت له : « حسبك يا رب هذا البحر ، إنك كنت بى عليما ! لقد طال مقامنا بهذه الجزيرة ، ولست أدرى أى آله عادل حبسنا فيها ، ولأى شىء ؟ ! » . وقال بروتيوس : « ويك يا منالاوس ! لم لم تصل لسيد الأولمب ثم تُضحِّ الآلهة يوم غادرت ( طروادة ) ؟ لقد غضب الجميع عليك فكتبوا أن تضل فى تيه هذا البحر حتى تكون تلقاء مصر ، فتقيم ثمة حتى يثوب اليك رشدك وتصلى للآلهة خاشعاً خاشعاً متصدعاً ، ثم تذبح القرابين وتجزر الأضحيات فتعود الى أوطانك ! » وعرانى مما ذكر ما عرانى ، فقلت له : « الحمد لك أيها الاله القدوس . . .

(١) أروح اللحم صار نتناً وصلوله رائحته المنتنة .

سأفعل ، سأفعل كل ما تأمرنى به ، ولكن قل لى بحق ربوبيتك ، هل وصل كل رجالنا الى أوطانهم سالمين كما تركتهم أنا وصاحبى نسطور عند طروادة أم أن منهم من غرق أو قتل أو مات حتف أنفه »

وكأنما ضاق بى ، ولكنه قال : « ويك يا ابن أتريوس ما هذه الأسئلة ! أتبتغى أن تقف على كل أسرارى ؟ اذن فاعلم أن أكثر رجالك قد عادوا سالمين الى أوطانهم ، وأن قليلاً منهم من مات ومن هؤلاء قائدان فقط قد قضيا ، وما يزال واحد يذرع رحب هذا البحر ، ضالاً على غير هدى ! . . . لقد هلك أجاكس بما تحدى الآلهة ، وبما ادعى أنه ناج برغم السماء من البحر اللجى الذى كان يناوح سفينته ، فبرز نبتيون غاضباً وشطر السفينة نصفين بضربة قاضية ، من رمحه السمهرى ذى الثلاث شعب ، ثم رطم حطامها بعد ذلك فوق صخرة جيريه ... مسكين أجاكس لقد غص بالأجاج ، وشرق بقطرات ثلات ! .. أما أخوك[1] فقد نجا ! لقد دفعته موجة هائلة فوق شاطىء ( ماليا ) ... أرض ذيستيس وإيجستوس .. ومن ثمة ركب البحر إلى وطنه آمناً . ألا كم كان أخوك رائعاً حين وطىء أرض الوطن فراح يقبل رمالها ويناجى كثبانها ! ألا ليته ما نجا ! لقد لمحه أحد الأوغاد من جواسيس إيجستوس فانطلق يخبر سيده الذى أعد كميناً من عشرين رجلاً من أفسق رجاله حيث اغتالوه كما يذبح المجل ؟ الأوشاب الفجرة ! لقد باءوا بما صنعوا ، وأبيدوا على بكرة أبيهم ... »

وما يكاد يصعقنى هذا الخبر حتى خذلتنى رجلاى ، وانطرحت أتقلب فى الرمال من الغم ، وأذرف الدمع من الحرقة على أخى . ولكنه خاطبنى قائلاً : « إنهض يا ابن أتريوس . إنك تبكى ولات حين بكاء .. هلم فعد إلى وطنك لترى بعينيك قبره ولتشهد ابنه العظيم أورست ينتقم له ، ويستأصل شأفة قاتليه . »

وكأنما سرى عنى بما قال بعد ، فنهضت وساءلته بعد أن شكرته على ما أنبأنى : « .. إذن من هذا البطل الثالث الذى ما يفتأ يذرع البحر ضالاً فى رحابه ؟ »

فقال : « ذاك ابن ليرليس ، وسيد إيثاكا ( أوديسيوس ) ! لقد شهدته بعينى حبيساً فى جزيرة عروس الماء كاليبسو . . . لقد حل عليها ضيفاً برغمه ، فلقد تحطمت سفائنه ، وهويته عروس الماء ، وهو ما يزال عندها لا يجد مركباً يحمله الى وطنه . . . أما أنت . . . أيها الملك منالايوس ، فطوبى لك ! إنك ستحيا سعيداً ، ثم تنتقل الى دار الخلد ونعيم لا يفنى . . . ودار الفردوس نزلاً . . . حيث لا برد ولا زمهرير ، ولا يوم عبوس قمطرير ، بل نسق ، ومن معك من الأناسى من ماء معين ، لا لغو فيه ولا تأثيم . . . مقام كريم وجنة نعيم ، وغادتك الحسناء هيلين ، ياذرية زيوس العظيم ! »

ثم غاص فى اليم ، وعدت ورجالى الى الفلك ، وفى القلب لوعة ، وبالنفس أسى . وتبلغ كل بالقيات ثم أسلمنا عيوننا للكرى ، وكأنما نام أسطولنا فى ظلام الشاطىء .

* * *

وانبلجت أورورا فنضرت بالورد جبين المشرق ، وهبت أنفاس الصباح المنداة فأهرعنا

(١) أجاممنون الذى نجا من الغرق ثم ما كاد يبلغ قصره حتى قتلته زوجته وعشيقها إيجستوس

جميعاً ، وجزرنا الأضاحى باسم الآلهة وصلينا لها خابتين ، وأقمت لأخى رمساً فوق ثرى مصر الخالدة ، ثم هبت الريح رخاء فنشرنا الشراع وأصلحنا القلوع ، وأقلعنا من فورنا إلى أرض الوطن ، فبلغنا هيلاس سالمين

وبعد ! فلتقم معنا ههنا أياماً تمرح وتفرح ، ونسعد نحن بك يا ابن أعز الأصدقاء ، ثم لنعد لك الهدايا واللهى التى تليق بك ، ولتعد إلى وطنك على عربة فاخرة تجرها ثلاثة من الصافنات الجياد ؛ ولنزودك بكأس ذهبية تصب منها قرابين الخمر للآلهة فتذكرنا أبداً »

وشكر تليماك واعتذر ، وأبدى من الحنين إلى وطنه ، وما عليه من واجبات ، وما ينبغى من عودة ابن ملك بيلوس ، ما بر عنـــده أن يستأذن فى الأوبة ... فأعذره ملك أسبرطة ، وأهدى إليه كأس فيديموس الفضية ، ذات الشفة الذهبية ، الكأس الخالدة التى صنعها الآله فلكان بيديه لينفح بها ملك سيدونيا

وهيأ الندل مقصفاً فاخراً به جزور وخمر ، وأقبلت أزواجهن يحملن الخبز ، فأكل الملك ومن معه وروووا

* * *

هذا ما كان من أمر تليماك ومنالايوس

أما ما كان من أمر العشاق آنئذ ، فقد كانوا يلعبون ويمرحون فى بيت ملك إيثاكا ، يلاعبون الأسنة ، ويقذفون القرص ، ويتصارعون ويمزحون . كانوا جميعاً يأخذون فى هذا اللهو لتزجية الوقت ، إلا أنتينوس ويوريماك ، فقد جلسا بمعزل يتحادثان . إذ أقبل الفتى نومون بن فرنيوس وقد تفضن جبينه ، وانتشرت على أساريره سحابة كئيبة فقال :

« أرأيت إذا أعطيت سفينتى للفتى تليماك فانى أريد أن أبحر إلى إيليس لأرعى أفراساً لى اثنتى عشرة ما تزال ترضع أفلاءها [1] متى يرجع من بيلوس يا أنتينوس ؟ »

وروّع الرجلان لهذا الخبر ، فلم يكن أحد يعلم أن تليماك قد غادر إيثاكا ، بل كانوا يظنونه يجتر آلامه وأحزانه فى أحد الأدغال النامية فى مزارعه . قال أنتينوس :

« أحقاً أنه أبحر يا نومون ؟ وهل صحبه أحد من ذويه ؟ وعلى سفينتك ؟ سفينتك أنت ؟ وهلى أبحر عليها بدون إذن منك ، أم أنت الذى أذنت له بها أول ما طلبها منك ؟ »

وأجابه نومون : « بل أبحر عليها باذنى . وماذا عساك كنت صانعاً لو سألك أمير فى مثل بأسائه أن يبحر على سفينتك ؟ أكنت ترفض وتتأبى ؟ لقد أبحرت معه ثلة من أشجع البحارين ، كلهم فينان العود ، غريض الشباب ، وقد رأيت معه أمير البحر منتور . ألا كم كان يبدو منتور بهيا وقوراً رائعاً ! تالله لقد خلته — بل أكبر ظنى أنه — أحد الآلهة : وكيف لا يكون إلها وقد رأيته بعينىّ هاتين صباح أمس وهو قد أبحر الى بيلوس قبيل ذلك ، فأنى عاد ؟

وفرغ نومون ، وعاد أدراجه الى دار أبيه ، واستولى الذهول على الرجلين ، وكان العشاق قد فرغوا مما أخذوا فيه من لهو ولعب ، وجلسوا يستريحون من التعب ، فيمم شطرهم أنتينوس ،

(١) الفلو ولد الفرس لم يبلغ عاما

وهو يتميز من الغيظ ، وينقدح الشرر من مقلتيه ، فقال :

« يا أرباب السماء ! أفيقوا أيها ارفاق ! عمل باهر ! باهر جداً ! لقد أبحر الفتى تليماك فى عصبة من شباب اللاحين ليؤلب عليكم العالمين ، ويرسل علينا حسباناً ! ! الويل له ! أعـــدوا لى مركبا وعشرين فارساً من أبسل صناديدكم لأتجاه بين أواذىّ ساموس و نُتُوء إيثـاكا التاعس الذى ذهب يستروح أخبار أبيه ليسعى الى حتفه بظلفه »

وتحمّس الملأ وعلا هتافهم ، وهرولوا إلى الرحبة الداخلية فى بيت أوديسيوس يتآمرون ، وكان على مقربة منهم الأمين ميدون ، الذى انطلق بدوره ينقل ما عقدوا خناصرهم عليه من إفك الى الملكة الباكية المفئودة ... پنلوب — وما كاد يقص عليها ما اعتزموه من قتل تليماك حتى تضعضعت وتخاذلت ومادت من تحتها الأرض ، وتحبّست أنفاسها هنيهة ، ثم سألت ميدون فيم أبحر ولدها . « ألكى ينقرض اسمه من صفحة الوجود ؟ » وأجابها الرجل : إنه ذهب يتسمّع الأنباء عن أبيـه . ثم ذهب لطيّته ، وجلسَت الملكة المرزّأة لدى الوصيد تبكى وتنتحب ، ومن حولها الغيد الرعابيب والعجوز الشمطاء من خادمات القصر ، يُعولن ويكفكفن ...

قالت الملكة : « ويح لى أيها العذارى ! أبداً ما أحسب واحدة من النساء قد لقيت بعض الذى لقيت مما كتبته علىّ السماء ! لقـد فقدت زوجى ، أسد هيلاس الكريم أوديسيوس الأمير الحُلاحل رجل الفضائل والمروءات ؛ ثم لم يبق إلا أن يرحل عنى ولدى . . . دون أن أعلم أمر رحيله من إحداكن ، فكنت أحول بينه وبين ما اعتزم ولو أدّيت ثمنا لذلك روحى ! ولكن ... هيا ... لتمض دليون — خادمتى الوفية ذات التجاريب — إلى ليرتيس — فلتحدثه عما تآمر الذئاب . ويْ ! لم يبق إلا أن يقتلوا ولدى وسليل أوديسيوس ! »

ونهضت پوريكليا مرضع تليماك ، تنثر دموعها وتقول :

« وا أسفاه علىّ أيتها الملكة ! سأعترف بما كان ولك أن تقتُلى ... أو تبقى علىّ ! لقد زودت الأمير بكل ما أمر من زاد وخمر ، وأخذ على موثقاً ألا أبوح بسره حتى تمضى اثنا عشر يوماً بتمامها ... حتى أنت يا مولاتى ! لقد أمرنى ألا أُعلمك بشىء اهدئى يا مولاتى ولا تضاعفى أحزان القصر بحزن جديد ، وامضى الى مخدعك فاستريحى ثمة ، ولتصلّ جميعاً لربة العدالة مينرڤا — باللا الطيبة — أن تصون مولاى الأمير وترعاه ، وتكلأه من كل خطر وليعد الى عرش آبائه ليحكم ويعدل ويدير شؤون البلاد .

ورقأ الدمع فى عيون الحاشية ، ونهضت پنلوپ فصعدت الى الطابق العلوى ، وأمرت بسلة من الكعك فنفحت بها العذارى قرباناً لمينرڤا وتقدمة ، ثم أرسلت هذه الصلاة :

« إسمعى يا ابنة سيد الأولمب ! يا مينرڤا العادلة ! باسم ما ذبح لك أوديسيوس فى هذا القصر وما ضحى نضرع اليك ونتوسل بك ونصلى لك ، أن تصونى ابنه الأمير وأن ترسلى عبوسة من شواظ غضبك على أعدائه ... أولئك الأضياف الظالمين ... آمين »

وانهمرت الدموع من عينى الملكة فاستجابت مينرڤا صلاتها . ثم علا ضجيج القوم وارتفع صخبهم ، وكان فيهم شاب نزق الثالث فى أذنيه صلاة پنلوپ فحسبها أشرفت تناغى وتغازل ، فراح يعرض بها

فى كلمات قوارص ، قطعها عليه أنتينوس بتحذيره القوم ، ونصيحته لهم أن يستعينوا على حزم أمرهم بالكتمان .

وتخير أنتينوس عشرين من خيرة رجاله ، ويمم بهم شطر البحر ، ثم ركبوا فى سفينة أعدت لما اعتزموه من تلصص وقرصنة وفتك إعداداً كافياً فنقلت إليها الأسلحة ، وحملت إليها حمال الزاد والذخيرة ... وأقلعت ، لا باسم الآلهة مجراها ... ولا سلكت سبيل الرشاد .

* * *

واضطجعت بنلوب فى فراش حشوه فكر وهم ، وجاشت فى قلبها الوساوس ، وطفقت الأوهام تفتك برأسها القلق الحيران بسبب ولدها ، ومادبر له الكلاب وما كادوا ، مسكين أيها الأسد ! لولا قوتك وجبروتك ما أكثر سائدوك حولك الأحابيل .

وأخذتها سنة من النوم ، فأقبلت مينرفا الكريمة فى رؤيا عجيبة تواسيها وتذهب عنها ذلك الطائف الحزين ، فتزيت برى الأميرة الفتان ، إفتيما ، ابنة البطل الكبير إيكاريوس ، ثم وقفت عند رأسها ، وشرعت ترسل هذه الأحلام :

« أهكذا تنامين ملء عينيك الجميلتين يا بنلوب العزيزة ؟ ليفرخ روعك ، وليصف بالك ، فالسماء ترعى ولدك ، وهو عائد إليك عما قريب ! إنه لم يقترف شيئاً مما يغضب الآلهة ، ولذا فهى تكلؤه وترعاه وتحفظه ، فقرى عينا واسلمى وانعمى ! »

وتقول بنلوب إذ هى تحلم :

« من ؟ إفتيما ؟ عجباً ! فيم قدمت يا أختاه وقد ندر أن كنت تلمين بهذا القصر ؟ ألتواسينى وتسلينى ؟ لقد تكاثرت الأحزان على قلبى ، وتكسرت النصال على النصال . . . لقد فقدت زوجى . . . أسد هيلاس وفخر آرجوس ، وعزى الأبدى ! ثم ها أنا ذى انتفض فرقاً على ولدى ... ولدى الطرى الفينان ، الذى لاقدرة له ولا احتمال ... فى هذا البحر اللجى ... لقد أقلعت به سفينة كأنها تسبح فى بحر من دمى وأحزانى ! وها قد تعقبه الأشرار فى سفينة أخرى يريدون غيلته قبل أن يرتد إلى وطنه ! »

وتجيبها مينرفا : « لا عليك يا ملكة ، ولا عليه هو الآخر ! إن معه راعياً يحفظه ويوقيه ... راعياً يتمنى الجميع أن يكونوا فى رعايته أبداً ... مينرفا ! إنها أيضاً تبشرك وترفه عنك ، وأنا هنا رسولها إليك ، أقبلت بأمرها أواسيك ! »

وهلمت بنلوب ثم قالت : « وَىْ ! أما إنك إذن لربة وقد كلمتك الأرباب ... ألا قصى على إذن ما كان من أمر رجلى ؛ أما يزال حياً يرزق ؟ أم تخطفته يد المنون ؟ »

وتضاحك الشبح العابس فقال : « لا ! ليس الآن ! ان أذكر لك إذا كان رجلك ما يزال حياً أو إنه قد قضى ، مالنا ولذلك ؟ »

ثم رفت فى ظلام الغرفة ، وصعدت فى سماء الأحلام

ونهضت الأم وقد سرى عنها بهذا الحلم ، وانجاب كابوس الهم الذى كان يثقل على قلبها

* * *

وأقلع العشاق بفلكهم فى اليم المضطرب ، كل تحدثه نفسه بقتل تليماخوس ، حتى كانوا عند برزخ أستريس ، بين ساموس وإيثاكا . . . فأرسوا ثمة يتربصون

( يتبع ) دريني خشبة